الهجـــــرة النبـويـــــــــة

حادثة وتـاريخ ودلالة وتشريع وآثـار

إعداد

د. أحمد بن محمد فكير

أستاذ مؤهل (دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية).

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، المملكة المغربية.

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

الهجرة النبوية حدث عظيم في تاريخ الإسلام، و فاصل بين مرحلتين هامتين في تاريخ الدعوة الإسلامية: المرحلة المكية والمرحلة المدنية.

وهذا الحدث العظيم موثق بالقرآن الكريم وكتب السنة النبوية، وكتب المغازي والسير، ورواه عدد من صحابة رسول الله ﷺ، منهم أبو بكر وعائشة والبراء بن عازب وسراقة بن مالك رضي الله عنهم.

ولقد كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية المقدمة التي مهدت للهجرة إلى المدينة المنورة، بعد أن اشتد الأذى بالمسلمين في مكة ،وضاقت عليهم بما رحبت،فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، ولحق بهم هو وصاحبه أبو بكر بعد حين، وتوالت وفود المهاجرين تترى إلى المدينة المنورة ، حتى كان فتح مكة فانقطعت الهجرة،وبقي الجهاد والنية.

وهناك في المدينة المنورة أقام النبي ﷺ دولة الإسلام على أسس ثلاثة : المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وكتابة الصحيفة. وكان إرساء الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة على هذه الأسس بأبعادها المختلفة والمتكاملة ، نقلة نوعية كبرى لم يشهد لها العرب مثيلا.

وهذا الحدث غني بالدروس والعبر، والدلالات والأحكام،وتضمن عددا من الدلائل الشاهدة على نبوة محمد ﷺ . وكانت له آثار عظيمة

على مسيرة الإسلام إذ انتقل من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين في الأرض وإقامة الدولة ،وإعلان الجهاد في سبيل الله، ومكاتبة الملوك والأمراء ،وتحقيق عالمية الدعوة الإسلامية. وبرزت هذه الآثار على مستويات عدة: تشريعية وسياسية واجتماعية واقتصادية.ولأهمية هذا الحدث اتخذه المسلمون في زمن الخليفة الثالث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، منطلقا للتاريخ الإسلامي.

***

خطة البحث:

مقدمة:

المبحث الأول : مقدمات الهجرة.

المبحث الثاني : أحداث الهجرة:

المطلب الأول: أوائل المهاجرين .

المطلب الثاني : في دار الندوة.

المطلب الثالث :خطة الهجرة.

المطلب الرابع:رد فعل قريش.

المطلب الخامس:في الطريق إلى المدينة.

المطلب السادس:قصة سراقة .

المطلب السابع:في خيمة أم معبد .

المطلب الثامن:القدوم إلى قباء.

المطلب التاسع:بناء المسجد.

المطلب العاشر:المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

المطلب الحادي عشر:كتابة الصحيفة.

المطلب الثاني عشر: تحليل الصحيفة.

المبحث الثالث : الدلالات والأحكام المستفادة من هذا الحدث :

المطلب الأول : الدلالات.

المطلب الثاني : الأحكام الفقهية.

المبحث الرابع : دلائل النبوة في حدث الهجرة.

المبحث الخامس : آثار الهجرة النبوية.

المطلب الأول: بداية التاريخ الإسلامي.

المطلب الثاني : أثرها على المستوى التشريعي.

المطلب الثالث : أثرها على المستوى السياسي.

المطلب الرابع: أثرها على المستويين الاجتماعي والاقتصادي.

خاتمـــة.

***

مقدمة :

الهجرة النبوية حدث عظيم بكل المقاييس ،ومنعطف فاصل بين مرحلتين كبيرتين في تاريخ الدعوة الإسلامية: المرحلة المكية والمرحلة المدنية، أو قل : بين مرحلة الدعوة في مكة ومرحلة الدولة في المدينة .المرحلة المكية التي كان الأساس فيها هو ترسيخ عقيدة التوحيد والمرحلة المدنية التي كانت مرحلة التشريع والأحكام ، وإعلان الجهاد العسكري وانفتاح الدعوة على العالم.

ولأهمية هذا الحدث اتخذه المسلمون في زمن الخليفة الثالث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، منطلقا للتاريخ الإسلامي.

وقد وردت الإشارة إلى حدث الهجرة في القرآن الكريم وكتب السنة والسيرة النبوية .أما القرآن ففي مواضع منها قوله تعالى: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[١]، وقوله تعالى: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)[٢]. وأثنى سبحانه وتعالى على صنيع الأنصار مع إخوانهم المهاجرين بقوله: (والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبو ن من هاجر إليهم و لايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[٣].وأما كتب السنة النبوية فقد حفلت

١- التوبة ٤٠.

٢- سورة الإسراء ٨٠.

٣- الحشر ٩.

بمرويات هذا الحدث من رواية عدة من الصحابة، وفي مقدمتها الصحيحان من رواية أبي بكر وعائشة والبراء بن عازب وسراقة بن مالك رضي الله عنهم أجمعين. كما تحدثت كتب المغازي والسير عن هذا الحدث بتفصيل بدءا بما كتبه الرواد الأوائل في هذا الفن أمثال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وابن سعد..وانتهاء بما كتبه المعاصرون.

***

المبحث الأول : مقدمات الهجرة

بدهي أن هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة كانت ضرورة تفرضها الظروف التي كان يعيشها المسلمون آنئذ بمكة، وما تعرضوا له من أذى واضطهاد ،فضاقت عليهم مكة بما رحبت، وضيق المشركون الخناق على الدعوة وأتباعها ، فكان التفكير في مكان آمن تسترجع فيه الدعوة أنفاسها، وتنطلق نحو آفاق أرحب.

وقد كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية بمثابة المقدمة التي مهدت لهذه النتيجة، أعني الهجرة إلى المدينة المنورة، ففي العام الثاني عشر للبعثة وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من أهل المدينة بايعوا النبي ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب[١].وأرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرئ بالمدينة[٢].

ونشط رضي الله عنه في الدعوة إلى الله تعالى رفقة صاحبه أسعد ابن زرارة، فأسلم بدعائهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ،ودخل الإسلام في كثير من دور الأنصار[٣].ولما كان العام الموالي أي في السنة الثالثة عشر للبعثة، خرج

١- سيرة ابن هشام ٤٣١/٢. وبيعة النساء هي المذكورة في قوله تعالى : (يأيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم).الممتحنة١٢.

٢- سيرة ابن هشام ٤٣٤/٢.

٣- سيرة ابن هشام ٤٣٦/٢- ٤٣٧.

الأنصار بزعامة البراء بن معرور مع جماعة من قومهم من أهل الشرك لحج بيت الله الحرام ، وواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيه ﷺ وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله كما يقول ابن إسحاق[١].

وقد حكى كعب بن مالك – وهو شاهد عيان – تفاصيل هذا اللقاء الذي تم عند العقبة، وكيف تمت بيعة الأنصار ،وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين،لرسول الله ﷺ بمحضر عمه العباس بن عبد المطلب الذي حضر ليستوثق لابن أخيه، وجعل عليهم النبي ﷺ اثني عشر نقيبا[٢].وهذه هي بيعة العقبة الثانية[٣] التي كان ضمن بنودها أن يمنع الأنصار رسول الله ﷺ مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة[٤].

وبذلك صار للإسلام وجود في المدينة المنورة ، وصارت هذه البلدة الطيبة مؤهلة أكثر من غيرها لاحتضان الدعوة الإسلامية ، واستقبال أتباعها المضطهدين في مكة، فكان أن أمر ﷺ بالهجرة إليها. قال ابن إسحاق : (فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ،وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺأصحابه من المهاجرين من قومه، ومن

١- سيرة ابن هشام ٤٣٨/٢.

٢- انظر سيرة ابن هشام ٤٣٩/٢- ٤٤٣.

٣- وتسمى أيضا العقبة الكبرى ، كما تسمى بيعة الحرب، لكون الرسول ﷺ بايعهم فيها على حرب الأحمر والأسود. (سيرة ابن هشام ٤٥٤//٢).

٤- دلائل النبوة للبيهقي ٤٥٢/٢.

معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ،واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها. فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة ،والهجرة إلى المدينة) [١].

***

١- سيرة ابن هشام ٤٦٨/٢.

المبحث الثاني : أحداث الهجرة

المطلب الأول : أوائل المهاجرين

في حديث البراء بن عازب عند البخاري أن أول المهاجرين إلى المدينة المنورة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم[١] ،وعند ابن إسحاق أنه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد[٢] ، وذكر قصة هجرته ، وكيف حال رجال بني المغيرة بينه وبين زوجه أم سلمة دون رفقته ،وحبسوها عندهم، فلما رأى ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة تجاذبوا ابنهما سلمة حتى خلعوا يديه، وانطلق به بنو عبد الأسد ، فكانت أمه تخرج كل غداة إلى الأبطح فتبكي مما ألم بها ،مدة سنة أو قريبا منها ، حتى أذنوا لها في اللحاق بزوجها ، ورد إليها بنو عبد الأسد ابنها سلمة ، وانطلقت هي وابنها وحيدين في الطريق إلى المدينة ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة فرافقها حتى وصلت إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء حيث نزل زوجها أبو سلمة[٣].

ثم هاجر إلى المدينة بعد ذلك عامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حثمة ثم عبد الله بن جحش ، ثم قدم المهاجرون أرسالا[٤] ، فنزلوا عند

١- البخاري ٣٩٢٥ كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

٢- وقد جمع الحافظ ابن حجر بين ما وقع في الصحيح وما ذكره ابن إسحاق بأن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة ، بل فرارا من المشركين بخلاف مصعب بن عمير فإنه خرج إليها للإقامة بها وتعليم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ فلكل أولية من جهة .(فتح الباري ٣٠٦/٧- ٣٠٧).

٣- سيرة ابن هشام ٤٦٨/٢- ٤٧٠.

٤- المصدر نفسه ٤٧٢/٢.

إخوانهم الأنصار[١].ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ،أو من حبس أو فتن[٢].

وقد قاسى بعض المهاجرين الأمرين في هذه الهجرة، ففضلا عن قصة آل أبي سلمة وما تعرضوا له في ذلك، كان صهيب الرومي هو الآخر عرضة لأذى المشركين،فعندما خرج مهاجرا لحقه كفار من قريش ليردوه ، فقال لهم : هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلون سبيلي وتفون لي ؟ فتبعهم إلى مكة فقال لهم : احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها إلى فلانة فخذوا الحلتين وخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ قبل أن يتحول منها يعني قباء ،فلما رآه قال : يا أبا يحيى ربح البيع ثلاثا ،فقال صهيب : يا رسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام[٣].وفي قصة هجرة عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي مثال آخر على ما قاساه المهاجرون[٤].

***

١- وانظر منازل المهاجرين بالمدينة عند ابن إسحاق (المصدر نفسه ٢/٤٧٦- ٤٨٠).

٢- المصدر نفسه ٢/٤٨٠.

٣- البيهقي في الدلائل ٢/٥٢٢- ٥٢٣ و المستدرك ٣/٤٥٢ وصححه ووافقه الذهبي .

٤- انظر سيرة ابن هشام ٢/٤٧٤- ٤٧٦.

المطلب الثاني : في دار الندوة:

ثم إن قريشا لما علمت بمبايعة الأنصار للنبي ﷺ وخروج المهاجرين إلى المدينة وكيف صارت للنبي ﷺ ودعوته شيعة ومنعة خارج مكة، فضلا عما تمثله المدينة من موقع تجاري هام،[١] حذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنهم قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة[٢].وتداولوا الرأي في شأن الخلاص من رسول الله ﷺ فمن قائل بحبسه ومن قائل بقتله ومن قائل بنفيه، ثم قر قرارهم في الأخير على قتله، وكان الذي تولى كبر هذا الجرم أبو جهل حيث قال : (أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ،ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. قال فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له)[٣].وقد سجل القرآن الكريم هذه المؤامرة في قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)[٤].ثم

١- الرحيق المختوم ص ١٤٣.

٢- سيرة ابن هشام ٤٨٠/٢ وأرخ المباركفوري ذلك يوم الخميس ٢٦ صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢ شتنبر سنة ٦٢٢م. (الرحيق المختوم ص ١٤٣).

٣- سيرة ابن هشام ٤٨٢/٢.وطبقات ابن سعد ٢٢٧/١ بنحوه.

٤- الأنفال ٣٠.

إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فأخبره بالذي بيته المشركون، وقال له : لاتبت على فراشك الذي كنت تبيت عليه، وترصد المشركون الرسول ﷺ ليضربوه ضربة رجل واحد كما زعموا، وأمر ﷺ عليا بن أبي طالب أن ينام على فراشه، وأعطاه برده الحضرمي الأخضر ، وقال له: نم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم[١].

ولما أمر الرسول ﷺ بالهجرة جاء متقنعا إلى منزل صاحبه أبي بكر في وقت لم يكن معتادا أن يأتيه فيه، وذلك في عز الظهيرة وقت اشتداد الحرارة فعلم أبو بكر أن مجيء رسول الله ﷺ في هذه الساعة لم يكن إلا لأمر قد حدث، وأمرهﷺ أن يخرج من عنده فطمأنه أبو بكر بأنما هما ابنتاه، وأخبرهﷺ بأن الله تعالى قد أذن له في الهجرة، فقال له أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يا رسول الله ؟ فقال: نعم [٢]، فبكى أبو بكر من الفرح، قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ[٣].ولما أذن الله تعالى لنبيه بالهجرة أنزل عليه : (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)[٤].

١- سيرة ابن هشام ٤٨٣/٢.

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٥ .

٣- سيرة ابن هشام ٤٨٥/٢.

٤- أخرجه أحمد ٢٢٣/١ من حديث ابن عباس .والآية من سورة الإسراء ٨٠.وقال قتادة وعبد الرحمان بن زيد بن أسلم (مدخل صدق) يعني المدينة ، و(مخرج صدق) يعني مكة، وهذا القول هو أشهر الأقوال و =

المطلب الثالث : خطة الهجرة:

لم تكن هجرة الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر إلى المدينة أمرا عفويا ولا مرتجلا، بل كانت نتيجة خطة محكمة استنفذ فيها جميع الجهد البشري، واستغلت كل الإمكانيات المتاحة، واتخذت فيها كل الاحتياطات اللازمة لإنجاحها.ويمكن تلخيص مراحل هذه الخطة فيما يأتي:

١- ابتاع أبو بكر راحلتين لما رجا أن يصحب الرسول في هجرته واحتبسهما في داره يعلفهما إعدادا لذلك[١].

٢- أمر النبي ﷺ عليا بن أبي طالب بالنوم على فراشه، وأن يتخلف عنه بمكة ليؤدي الودائع إلى أهلها[٢].

٣- خرج ﷺ إلى بيت أبي بكر متقنعا في وقت لم يعتد أن يأتيه فيه وذلك في عز الظهيرة.

٤- تكتم ﷺ على هذا الأمر فلم يكن يعلم به إلا علي بن أبي طالب وآل أبي بكر[٣].فلما جاء منزل أبي بكر أمره بإخراج من عنده تكتما على لأمر فلما طمأنه أبو بكر ، إذ ذاك أخبره ﷺ بأمر الهجرة.

=

هو الذي اختاره ابن جرير ورجحه ابن كثير .وفي تفسير الآية أقوال أخر(انظر جامع البيان ١٥٠/١٥ وتفسير القرآن العظيم ٥٣/٣).

١- سيرة ابن هشام ٤٨٤/٢.

٢- المصدر نفسه ٤٨٥/٢.

٣- المصدر نفسه ٤٨٥/٢.

٥- استأجرا رجلا مشركا أمينا عارفا بمسالك الصحراء يدعى عبد الله بن أريقط، وسلماه راحلتيهما ،وواعداه غار ثور بعد ثلاثة أيام.

٦- خرجا ليلا إلى غار ثور، وهو في الجهة الجنوبية الغربية من مكة، وفيه التمويه على الكفار، لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن الرسول ﷺ في الجهة الشمالية في اتجاه المدينة[١] وكان خروجهما من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته[٢].وكمنا فيه ثلاثة ليال[٣]حتى يخف الطلب عنهما.

٧- أمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما أخبار القوم عنهما نهارا، ويأتيهما بها ليلا، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ليلا،ثم يريحهما عليهما إذا أمسى في الغار ليرتويا من ألبانها[٤]ويطعما منها[٥]، وليعفي بآثارها آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر.وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما[٦].

هكذا إذن اتخذ ﷺ جميع الأسباب الممكنة،والاحتياطات اللازمة، وودع بلده مكة بقلب حزين ، ونفس ملؤها الحنين ، وهو

١- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، د. مهدي رزق الله أحمد ص ٢٦٧.
٢- المرجع نفسه ٤٨٥/٢.
٣- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٥.
٤- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٥.
٥- سيرة ابن هشام ٤٨٦/٢.
٦- سيرة ابن هشام ٤٨٥/٢.

يقول : (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)[١].واتجها نحو غار ثور فمكثا فيه ثلاث ليال، فجاءهما عبد الله بن أريقط كما واعداه ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاما فشقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر[٢].وخرج بهما دليلهما صوب المدينة المنورة[٣].

***

المطلب الرابع : رد فعل قريش:

ولما علمت قريش بفشل مؤامرتها لقتل الرسول ﷺ جن جنونها ، وخرجوا يطلبون الرسول ﷺ، فجاءوا بيت أبي بكر وسألوا عنه ابنته أسماء فقلت: والله لا أدري أين أبي ،فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها[٤].ثم رصدوا جائزة قوامها مائة من الإبل لمن يأتيهم بهما ، وهو مبلغ كفيل بأن يسيل لعاب الطامعين .وجد المشركون في البحث عن الرسول ﷺ ،واستطاعوا – رغم كل الأسباب التي اتخذها ﷺ لتأمين هذه الرحلة المباركة – الوصول إلى غار ثور ، وكانت لحظات حرجة جدا ، استشعر فيها أبو

١- الترمذي كتاب المناقب باب في فضل مكة رقم ٣٩٥١ ،وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح ،وصححه ابن حبان ٢٣/٩ والحاكم ٢١/٣.

٢- سيرة ابن هشام ٤٨٦/٢.

٣- المصدر نفسه ٤٩١/٢.وانظر تسمية الأماكن التي سلكها بهم الدليل عند ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٤٩١/٢- ٤٩٢).

٤- المصدر نفسه ٤٨٧/٢.

بكر الخطر المحدق بهما فقال : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا ، فقال النبي ﷺ : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟[١]. إنه يقين النبوة ، وثبات الرسول المؤيد بالوحي ،وخلد القرآن الكريم هذا الموقف : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[٢].

هاهنا إذن يتوقف الجهد البشري فتتدخل العناية الإلهية لتحمي نبيه الكريمﷺ ، وهاهنا تقف الأسباب لتعمل المعجزة من وراء الأسباب ، إنها قدرة الله المطلقة التي لا تحدها حدود ولا قيود.

***

المطلب الخامس : في الطريق إلى المدينة:

ومضى الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر في طريقهما إلى المدينة ، حتى إذا قام قائم الظهيرة أتى أبو بكر صخرة لها بقية ظل فسواه وفرش للنبي ﷺ فيه، ثم انطلق ينظر هل يرى من الطلب أحدا ، فإذا هو براعي غنم ، فاستمنحه أبو بكر لبنا ، فمنحه، فانطلق به إلى النبي ﷺ فوافقه قد استيقظ ،فشرب منه ﷺ ثم ارتحلا والقوم يطلبونهم [٣].

١- البخاري كتاب التفسير باب (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) رقم ٤٦٦٣.

٢- التوبة ٤٠.

٣- البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين وفضلهم رقم ٣٦٥٢ وكتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩١٧.

ثم واصلا طريقهما، وكان أبو بكر ردف النبي ﷺ ، فكان أبو بكر إذا سئل : من هذا الذي بين يديك؟ فيقول : هذا الرجل يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق وإنما يعني سبيل الخير[١].

***

المطلب السادس : قصة سراقة

واسمه سراقة بن مالك بن جعشم من بني مدلج، وكان قد خرج لملاحقة رسول اللهﷺ وصاحبه طمعا في الجائزة ،حتى إذا دنا من النبي ﷺ عثرت به فرسه فاستقسم الأزلام فخرج الذي يكره وهو ألا يضرهم ، لكن غلبه الطمع في المائة ناقة ، فعاود المحاولة ثانية فعثرت به فرسه ثم ثالثة فساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فلما انتزع الفرس يديه من الأرض تبعهما دخان كالإعصار فأيقن حينئذ أن النبي ﷺ ممنوع منه، وأن سيظهر أمره ، فناداهم بالأمان وعرض عليهم الزاد والمتاع، فلم يقبلا منه شيئا، وقال له الرسول ﷺ : أخف عنا [٢]. وطلب من الرسول ﷺ أن يكتب له كتاب أمان ، فكتبه حتى إذا كان فتح مكة أظهر الكتاب فقال له النبي ﷺ : اليوم يوم وفاء وبر، فدنا منه ، وأسلم[٣].

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩١١.

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٦.

٣- سيرة ابن هشام ٤٩٠/٢.

ووفى سراقة بما أمره به النبي ﷺ ، فجعل لا يلقى أحدا إلا قال : كَفَيتكم ما هنا[١] ، وهكذا كان أول النهار جاهدا على النبي ﷺ وآخره مسلحة له[٢].فسبحان مقلب القلوب.

***

المطلب السابع : في خيمة أم معبد

و في طريقهم إلى المدينة مر الركب النبوي بخيمتي أم معبد الخزاعية، واسمها عاتكة بنت خالد ، فسألوها طعاما فلم يجدوا عندها شيئا ، فقد كانت سنة جدب ، فنظر النبي ﷺ إلى شاة عندها عجفاء ، فاستأذنها في حلبها ،فقالت : بأبي أنت وأمي إن وجدت بها حلبا فاحلبها ، فمسح ﷺ بيده الشريفة ضرعها ، وسمى الله تعالى ودعا ، فدر اللبن غزيرا ، فارتوى القوم وخلفوا عندها إناء مملوءا من لبن ، فلما جاء زوجها أبو معبد استغرب الذي رأى من أمر الشاة، فأخبرته زوجه الخبر ،فقال :صفيه لي ، فوصفته بوصف بليغ ،ثم قال: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر،ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا[٣].

***

١- البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام رقم ٣٦١٥.

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩١١.

٣- أخرجه الحاكم ٣/١٠- ١١، و البيهقي في الدلائل ١/٢٨١ من حديث حبيش بن خالد. و صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

المطلب الثامن : القدوم إلى قباء:

لما بلغ الأنصار خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة كانوا يخرجون أول النهار لانتظار قدومه ﷺ، حتى إذا اشتد الحر عادوا من حيث أتوا ، فلما كان يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ١٤ للبعثة وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ، وكانت فرحة المسلمين بقدوم نبيهم عظيمة ، حتى قال البراء بن عازب : (فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ)[١].

ونزل ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف ، وكان نزوله على كلثوم بن هدم،وهناك في قباء أسس أول مسجد في الإسلام ، ومكث هناك يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، فلما كان يوم الجمعة سار نحو المدينة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها هناك ، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[٢].

وكان ﷺ لا يمر بدار من دور الأنصار إلا تلقاه أهلها وقالوا: هلم إلى العدد والعدة والمنعة ،فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. فسارت الناقة بأمر ربها حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت، وكان مربدا للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة[٣]، واحتمل أبو أيوب الأنصاري – واسمه خالد بن زيد – رحله إلى

١- البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة رقم ٣٩٢٥.

٢- ابن هشام ٢/٤٩٣- ٤٩٤.

٣- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٦.

بيته[١].وكانت مكرمة لهذا الصحابي الجليل الذي شرف باستضافة خير خلق الله في بيته، فنزل النبي ﷺ في القسم السفلي من البيت ، لكونه أرفق به وبمن يغشاه[٢] ، ثم تحت إلحاح أبي أيوب تحول ﷺ إلى القسم العلوي منه، وكان يصنع للنبي ﷺ طعاما فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه ،فيتتبع موضع أصابعه ،فصنع له طعاما فيه ثوم فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ ،فقيل له :لم يأكل، ففزع وصعد إليه فقال : أحرام هو ؟ فقال النبي ﷺ : لا ، ولكني أكرهه .قال : فإني أكره ما تكره أو ما كرهت[٣].وفي رواية ابن إسحاق : (فقلت : يا رسول الله ،بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك لم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة .قال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجى ،فأما أنتم فكلوه. قال : فأكلناه ،ولم نصنع له تلك الشجرة بعد)[٤].

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ، ولم يبق منهم بمكة إلا مفتون أو محبوس[٥].وقد اعترضت بعضهم مشاكل صحية أثناء مقامهم بالمدينة ، من ذلك ما ترويه عائشة قالت : (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، قالت : فدخلت عليهما ، فقلت :

١- سيرة ابن هشام ٢/٤٩٤- ٤٩٦.
٢- المصدر نفسه ٢/٤٩٨.
٣- صحيح مسلم ٣/١٦٢٣.
٤- سيرة ابن هشام ٢/٤٩٩.
٥- سيرة ابن هشام ٢/٤٩٩.

ياأبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت : فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة)[١] .

***

المطلب التاسع : بناء المسجد:

وفي ذلك المكان الذي بركت فيه ناقته بنى مسجده ﷺ ، وكان كما سبق الذكر مربدا لغلامين يتيمين وكانا قد وهباه للنبي ﷺ فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما [٢].

وعمل فيه ﷺ بنفسه ليرغب المسلمين في العمل فيه ،وقال قائلهم:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل[٣]

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٢٦.

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبيﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٦.

٣- سيرة ابن هشام ٤٩٦/٢.

وأخذ ﷺ ينقل معهم اللبن ، وهو يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر.

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة[١].

وكان كل واحد من المسلمين يحمل لبنة لبنة ، إلا عمار بن ياسر فإنه كان يحمل لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فنفض التراب عنه وقال : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. قال عمار : أعوذ بالله من الفتن[٢].

***

المطلب العاشر : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان توافد المهاجرين بكثرة على المدينة المنورة ، وقد تركوا ديارهم وأموالهم بمكة ، بحاجة إلى حل لسد حاجاتهم، وإشعارهم بأنهم ليسوا عالة على الأنصار، وتمتين روابط المودة فيما بينهم وبين الأنصار أهل المدينة، فكان أن آخى ﷺ بينهم في دار أنس بن مالك[٣] ،

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٣٢. وعند ابن إسحاق:
لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة .
(سيرة ابن هشام ٢/٤٩٦).

٢- البخاري كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المسجد رقم ٤٤٧.

٣- البخاري كتاب الكفالة باب قول الله عز وجل : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) رقم ٢٢٩٤.

وقال لهم: تآخوا في الله أخوين أخوين[١]. وكانوا تسعين رجلا وقيل مائة، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ،وكان ذلك قبل بدر فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم) نسخت هذه الآية ما كان قبلها ،وانقطعت المؤاخاة في الميراث ،ورجع كل إنسان إلى نسبه، وورثه ذوو رحمه[٢].

وقد كان الأنصار أهل زراعة فأعطوا أراضيهم لإخوانهم المهاجرين ليعملوا فيها بنصف الثمر[٣].ونظرا لصنيع الأنصار هذا ، والمستوى الرفيع الذي أبدوه في البذل والمواساة والإيثار أثنى عليهم ربنا تبارك وتعالى في محكم تنزيله : (والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[٤].وأثنى عليهم رسوله ﷺ، وكتب الحديث تفيض بذكر مناقبهم ومحاسنهم. وفيما يرويه البخاري في هذا الباب لما يدعو إلى العجب ، ويستحق أكثر من وقفة، فعن أنس بن مالك قال : (قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ،فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ،فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئا من أقط وسمن ،فرآه النبي ﷺ

١- سيرة ابن هشام ٥٠٥/٢ بدون إسناد ، وقد ذكر ابن إسحاق عددا ممن آخى بينهم النبي ﷺ.

٢- طبقات ابن سعد ٢٣٨/١.

٣- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار رقم ٣٧٨٢ .

٤- الحشر ٩.

بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال النبي ﷺ :مهيم يا عبد الرحمن ؟ قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: فما سقت فيها ؟ فقال: وزن نواة من ذهب. فقال النبي ﷺ :أولم ولو بشاة)[١].

وظل المهاجرون يذكرون هذا الفضل لإخوانهم الأنصار بلسان الثناء والاعتراف ، فعن أنس قال : (لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا : يا رسول الله ،ما رأينا قوما أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم ، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله فقال النبي ﷺ :لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم) [٢] ،ولما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال أقام بها يومئذ مجاهدا ،سأله عمر : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : مع أبي رويحة ،لا أفارقه أبدا للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بيني وبينه .فضم إليه ،وضم ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال منهم[٣].

***

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه رقم ٣٩٣٧، واللفظ له، وأحمد ١٩٠/٣.

٢- الترمذي كتاب صفة القيامة باب ٤٤ رقم ٢٤٩٥ ، وقال : هذا حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه.

٣- سيرة ابن هشام ٥٠٧/٢.

المطلب الحادي عشر : كتابة الصحيفة

قال ابن إسحاق : (وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم ،وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم، واشترط عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ،وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ،وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ،وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ،وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم

أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

قال ابن هشام : المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال. قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ،وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ،ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن ،وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ،وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ،وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ،وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ،وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ،وإن يهود

بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ،وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ،وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بن عوف ،وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ،وإنه لا ينحجز على ثار جرح ،وإنه من فتك فبنفسه فتك ،وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ،وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار مضار ولا آثم وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ ،وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ،وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ،وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ،وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ،على كل أناس حصتهم في جانبهم

الـذي قبلـهم ،وإن يهـود الأوس مـواليهم وأنفـسهم علـى مثـل مـا لأهـل هـذه الـصحيفة مـع الـبر المحـض مـن أهـل هـذه الـصحيفة . قـال ابـن هـشام : ويقـال مـع الـبر المحـسن مـن أهـل هـذه الـصحيفة.قـال ابـن إسـحاق: وإن الـبر دون الإثـم لا يكـسب كاسـب إلا علـى نفـسه وإن الله علـى أصـدق مـا في هـذه الـصحيفة وأبـره ،وإنـه لا يحـول هـذا الكتـاب دون ظـالم وآثـم وإنـه مـن خـرج آمـن ومـن قعـد آمـن بالمدينـة إلا مـن ظلـم أو أثـم وإن الله جـار لمـن بر واتقى .ومحمد رسول الله ﷺ)[1].

***

المطلب الثاني عشر : تحليل الصحيفة ٢ :

أكـدت الـصحيفة علـى أن المـسلمين (مهـاجرين وأنـصار) أمـة واحـدة تـربط بـين أفرادهـا آصـرة العقيـدة، وولاؤهـم لله تعـالى لا للقبيلـة، وهـو متمـايزون عـن غيرهـم مـن الأمـم (مـن دون النـاس) بتعـبير الـصحيفة،

١- سيرة ابن هشام ٥٠١/٢ بدون إسناد. وانظر المصادر الأخرى لهذه الصحيفة في كتاب : (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) للدكتور مهدي رزق الله أحمد ص: ٣٠٧- ٣١٢ وكتاب (السيرة النبوية الصحيحة) للدكتور أكرم ضياء العمري ٢٧٢/١- ٢٧٣ .ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري أن هذه الوثيقة ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة ، حيث وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة ،ثم إن أسلوبها الذي كتبت به، وكونها لا تمدح أو تقدح فردا ولا جماعة، والتشابه الكبير بين أسلوبها وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقا آخر (انظر السيرة النبوية الصحيحة ٢٧٥/١).

٢- انظر في ذلك كتاب (السيرة النبوية الصحيحة) للدكتور أكرم ضياء العمري ٢٨٦/١- ٢٩٨ وكتاب (السيرة النبوية ،عرض وقائع وتحليل أحداث) للدكتور علي محمد محمد الصلابي ٣٩٩/١- ٤٠٧ ،وكتاب (دراسة في السيرة)للدكتور عماد الدين خليل ص ١٥١- ١٥٢ ،وكتاب (الدولة العربية الإسلامية ، نشأتها ونظامها السياسي) لمنصور أحمد الحرابي ص ٣٧- ٤٠.

وكان هذا التمييز مقصودا لزيادة تماسك الجماعة المسلمة، واعتزازها بدينها. واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلة عددهم ،في حين نسبت الأنصار لكثرتهم إلى عشائرهم (بنو عوف ، بنو الحارث، بنو ساعدة..).وهذا لا يعني في شيء نقض أساس العقيدة، واعتماد القبيلة مكانه، بل قصد منه تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد العشيرة الواحدة كعقل الديات (على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى) ، وفداء الأسرى (وهو يفدون عانيهم بالمعروف). وبناء على هذه القاعدة (أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس) دخلت شعوب كثيرة في الإسلام دون أن يكون انتماؤها العرقي أو اللغوي حائلا بينها وبين اعتناق الإسلام، والمساهمة في بناء صرحه العظيم.

وقررت أيضا مسؤولية المؤمنين في إعانة المفرح منهم (وهو الذي أثقله الدين)سواء ترتب هذا الدين عن أسره في يد العدو، أو عن جناية خطأ، وهو تأكيد لمبدأ التكافل الاجتماعي بين الجماعة المؤمنة(وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل).

كما أقرت الصحيفة المسؤولية الجماعية للمؤمنين بإنزال العقوبة على من خالف الشرع كائنا من كان ، حتى لو كان ولد أحدهم (وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم) وهي بذلك ترسخ مبدأ سيادة القانون فوق الجميع.كما ألغت الصحيفة عادة الأخذ بالثأر التي كانت سائدة في الجاهلية، واعتبرت القتل بدون موجب شرعي جريمة يعاقب عليه بالقصاص، إلا إذا اختار

أهل القتيل الدية ، أو العفو ،وحملت المؤمنين جميعا مسؤولية تطبيق الحد عليه (وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه) وفي الوقت نفسه تتوعد الصحيفة كل من آوى محدثا – وهو من وقع في حد من حدود الله عز وجل – أو نصره بعقوبة مغلظة وهي لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يقبل منه صرف ولا عدل ، وذلك حتى يسري القانون على الجميع، و لايجد المجرم في حماية أو سند ما ذريعة للإفلات من العقاب (وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه ،وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل).وأكدت استعلاء المؤمنين على الكافرين (ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن).

كما أقرت مبدأ الجوار الذي كان معمولا به في الجاهلية، وجعلته حقا لكل مسلم أيا كان، وحصرت الموالاة فيما بين المؤمنين دون غيرهم، فلا يوالي مؤمن كافرا ولا ينصره (وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ،وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس).والمؤمنون ينصر بعضهم بعضا ، ويمنع بعضهم بعضا ، لما بينهم من رابط الإيمان والعبودية لله عز وجل (إن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله).وهي بذلك تقطع عادات الجاهلية التي جعلت الولاء على أساس العصبية القبلية ،وكان شعارها (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، وجعلت مكانها الولاء لله .

ومنعت الصحيفة مشركي المدينة أن يجيروا أنفس قريش وأموالها، إذ كان النبيﷺ في حرب معهم، وأي إجارة لقريش وأموالها ستكون عونا لهم على الدولة الإسلامية، وستكون بالتالي خرقا لواجب من واجباتهم نحو هذه الدولة (وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن) وهو الواجب نفسه الذي ألزم به يهود المدينة (وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها).

وأكدت الصحيفة على أن المرجعية العليا في الإسلام لله عز وجل وللرسول ﷺ ، تثبيتا للأمن والنظام، ومنعا للفوضى والاضطراب ، الذي ينشأ عن تعدد المرجعيات واختلافها وتضاربها ، (وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ).

واستنادا إلى هذ المبدأ الإسلامي فقد جمع النبي ﷺ في آن واحد بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية و السلطة القضائية ،وهو ما عبر عنه علماؤنا قديما بتصرفات الرسول ﷺ باعتباره نبيا مبلغا عن الله عز وجل (السلطة التشريعية) وباعتباره إماما رئيسا للدولة (السلطة التنفيذية) ثم باعتباره قاضيا يفصل في الخصومات (السلطة القضائية).

ولأن الرسولﷺ هو رئيس الدولة وصاحب السلطة التنفيذية ،فهو وحده يقرر دون غيره إعلان الحرب ،فإذا أعلنها يكون المؤمنون ملزمين بها ، ولا يجوز لهم أبدا مهادنة الخصم .ثم إن عبء الحرب لا تتحمله عشيرة دون أخرى بل تتناوب فيه العشائر كلها(وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على

سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية يعقب بعضها بعضا).

وأما بخصوص البنود المتعلقة بيهود المدينة،فقد اعتبرتهم الصحيفة جزءا من الدولة الإسلامية يتمتعون بحق المواطنة كسائر المؤمنين، واختلاف الدين لن يكون سببا لحرمانهم من هذا الحق، أو إيقاع الظلم بهم(وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم).واعتبرتهم أمة مع المؤمنين ، وسمتهم بعشائرهم (بنو عوف – بنو النجار بنو الحارث..)وكفلت لهم حريتهم الدينية (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم)وهي بذلك رسخت لمبدأ أصيل في دين الإسلام وهو حرية الاعتقاد (لاإكراه في الدين).وحملت مسؤولية ارتكاب الجريمة لمرتكبها منهم (إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته).وكون اليهود معاهدين لا يحول بينهم وبين إيقاع العقوبة إذا أتوا أسبابها (وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم).

وتلزم الصحيفة يهود المدينة بتحمل نفقات الحرب مع المؤمنين (وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين)والدفاع عن المدينة حال العدوان عليها (وإن بينهم النصر على من دهم يثرب).كما تحرم عليهم الخروج من المدينة إلا بإذن من النبي محمد ﷺ (وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ) وتمنعهم من إجارة قريش وتجارتها (وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها)،وهو نفس التعهد الذي أخذ من قبل على مشركي المدينة، وذلك قطعا للطريق عن أي مدد أو حماية لقريش.

وفي حال حدث أو اشتجار بينهم وبين المسلمين ،فإن اليهود ملزمون

بالرجوع إلى الله وإلى الرسول ﷺ (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ)، وفيما عدا ذلك من أمورهم الشخصية فإنهم يحتكمون إلى التوراة.

وفي الوقت الذي سمحت فيه الصحيفة لحلفاء اليهود والمسلمين بمصالحة كل طرف للآخر ،فإنها استثنت من ذلك قريشا باعتبارها في حالة حرب مع المسلمين (وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين).

واعتبرت الصحيفة المدينة المنورة حرما لايقتل صيده ولا يقطع شجره(وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة)وأمنت من بها إلا من حمل ظلما أو اكتسب إثما(وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم).

***

المبحث الثالث: الدلالات والأحكام المستفادة من هذا الحدث.

المطلب الأول : الدلالات

١ – في اجتماع قريش في دار الندوة، واتفاقهم على قتل النبي ﷺ دليل على أن اغتيال القيادة المؤمنة الصالحة هدف مشترك لقوى الظلم والطغيان، فمن قبل حاول قوم إبراهيم الخليل عليه السلام إحراقه بالنار فأنجاه الله عز وجل ،وقر قرار الرومان على اغتيال عيسى عليه السلام فرفعه الله إليه،ومضت سنة الله تعالى في أنبيائه أن طالت بعضهم يد القتل (وكأين من نبي قتل)[1].وهاهم في دار الندوة تآمروا على قتل النبي ﷺ فلم يفلحوا ، وتعقبوه إلى الغار فلم يفلحوا أيضا ، ورصدوا جائزة لمن يقتله أو يأسره ،فلم يفلحوا ، في كل مرة كانت عناية الله تبارك وتعالى تحيط نبيه الكريم حيثما حل وارتحل:

وإذا العناية لا حظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ورحم الله الشهاب البوصيري حينما يقول:

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

١- آل عمران ١٤٦.واشتهر عند أهل السير هاهنا أن العنكبوت نسج على باب الغار ،وهو حديث أخرجه أحمد ٣٤٨/١ من طريق عثمان بن عمرو بن ساج عن مقسم مولى ابن عباس عن ابن عباس .

قال ابن كثير: (هذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية الله تعالى رسوله ﷺ) البداية ١٨٠/٣- ١٨١.كما حسنه الحافظ في الفتح ٢٧٨/٧ ؛ مع أنه قال في عثمان بن عمرو بن ساج الجزري : فيه ضعف (التقريب ص ٣٨٦). ورد الألباني تحسين ابن كثير وابن حجر لهذا الحديث ، وضعفه بحال عثمان بن عمرو بن ساج الجزري (حاشية فقه السيرة للغزالي ص ١٧٣).

٢ – وفي قوله ﷺ : (قد أريت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين ،وهما الحرتان)[١] ، وقول ابن عباس : (بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ،فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ،ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين)[٢]دليل على أن الهجرة إلى المدينة كانت وحيا من عند الله عز وجل،وليست اجتهادا من النبي ﷺ.

٣ – وفي الهجرة النبوية نموذج رائع للتخطيط المحكم الذي سار عليه النبي ﷺ لتأمين هذه الرحلة المباركة،واستنفاذ للجهد البشري ، ورعاية للسنن التي أقام الله عليها الكون.كان من الممكن أن تكون الهجرة كلها معجزات، ولكن لن تكون حينئذ محل أسوة ومحل تشريع، إذ المعجزات فوق طاقة الناس ووراء عالم الأسباب.انظر مثلا إلى قوله تعالى وهو يخاطب مريم : (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا)[٣]،قال أهل التفسير : كان من الممكن أن يطعمها الله تعالى من ثمر النخلة دونما حاجة إلى هذا الفعل منها، لكن أمرها بذلك رعاية للأسباب. وفي غزوة بدر أمد الله تعالى المسلمين بمدد من الملائكة مع قدرته تعالى على أن يهلكهم بريشة واحدة من جناح جبريل عليه السلام.والحكمة في ذلك كما أجاب عنه السبكي هو مراعاة الأسباب على صورة مدد الجيوش في الحرب[٤].

١- أخرجه البخاري كتاب الكفالة باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده رقم ٢٢٩٧

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٢.

٣- مريم ٢٤.

٤- فتح الباري ٣٩٧/٨.ونصه (قال الشيخ تقي الدين السبكي: سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺمع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه .فقلت: وقع ذلك =

وانظر – رحمك الله – كم عانى المسلمون ويعانون عندما افتقدوا هذا الوعي، وشاعت بينهم العقلية التواكلية التي تلغي الفعل البشري ، أو تنتقص منه لصالح الخوارق والكرامات التي بالغ فيها بعض الناس، وطفحت بها كتبهم.وانظر – رعاك الله – كم عانينا ونعاني عندما افتقدنا هذا الحس التنظيمي الذي يرتب الأولويات، ويضع المقدمات للوصول إلى النتائج، ويستفرغ الجهد حتى يصل إلى درجة الإحسان.

٤ – وفي الهجرة أيضا نموذج للتكتم والحذر الذي كان يأخذ به النبي ﷺ في عدد من المواقف حتى يبلغ هدفه. فقد جاء إلى صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه في وقت لم يكن معتادا أن يأتيه فيه، وجاءه متقنعا حتى لا يعرف ،وأمره أن يخرج من عنده حتى لا يسمع كلامه، فطمأنه أبو بكر بأنما هم أهله، وخرجا إلى الغار ليلا، وسلما الراحلتين إلى الدليل ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال.وعندما أدركهما سراقة، وحدثت المعجزة ،قال له النبي : عم عنا الطلب.ونفذ الرجل ما أمر به، فكان إذا لقي بعضا ممن يطارد النبي يقول لهم: قد كفيتم هاهنا، وقال لصاحبه أبي بكر : أله الناس عني ، فكان إذا سئل : من هذا الذي معك ؟ قال : هاد يهديني السبيل .

في كل هذه الأحوال كان الرسول الأعظم ﷺ يسلك مسلك

=

لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع ،والله أعلم).

الحيطة والحذر لتأمين هذه الرحلة المباركة، وتفويت الفرصة على المطاردين.

وكان من هديه ﷺ أنه إذا أراد غزوة ورى بغيرها[١]، وذلك حتى يباغت العدو، ويأخذه على غرة، إلا ما كان في غزوة تبوك، لشدة الحر، ولشراسة العدو.وإن المطالع للسيرة النبوية ليقف على أمثلة أخرى لهذا المسلك الحكيم[٢].

٥ – وفي عدم قبول النبيﷺ أخذ الراحلة هبة من صاحبه أبي بكر، وأبى إلا أن يبتاعها منه دليل على حرصه ﷺ على أن تكون هجرته إلى الله تعالى بنفسه وماله ،رغبة منه في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما ، كما ذكره السهيلي عن بعض أهل العلم، وعقب قائلا: وهو قول حسن[٣].وكذلك الأمر عندما أبى ﷺ أن يأخذ الأرض التي بني فيها مسجده بالمدينة هبة من الغلامين حتى ابتاعها منهما[٤].وإن المتأمل في السيرة النبوية ليجد أمثلة أخرى لهذا الحرص النبوي على استكمال الفضل، والبلوغ بالعمل أعلى درجات الإحسان.خذ مثلا غزوة بدر الكبرى فقد كان النبي ﷺ يعتقب على بعير رفقة علي بن أبي طالب وأبي لبابة ،حتى إذا كانت عقبته – أي

١- البخاري ٢٩٤٧ كتاب الجهاد والسير باب من أراد غزوة فورى بغيرها ،ومن أحب الخروج يوم الخميس، ومسلم ٢٧٦٩ كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

٢- للتوسع في هذا الباب ينظر كتاب الأمة (في السيرة النبوية :قراءة لجوانب الحذر والحماية) للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد ،العدد٥٤ ،رجب ١٤١٧.وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.

٣- الروض الأنف ٢/٢٣٠ .ونقله في الفتح ٧/٢٧٧ وشرح المواهب اللدنية ٢/١٠٦.

٤- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٦.

نوبته – قالا له: اركب حتى نمشي ، فيقولﷺ : (ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[١].

٦ – وفي بناء النبي ﷺ لمسجد قباء وهو في طريقه إلى المدينة، وبنائه للمسجد النبوي عندما وصل المدينة المنورة، دليل على مكانة المسجد في الإسلام ،فهو مكان العبادة، ومدرسة العلم، وملتقى المسلمين، ومنطلق الجهاد لإعلاء كلمة الله عز وجل.وكم في تاريخ المسلمين من شواهد على الدور الذي قام به المسجد في تعليم الجاهل ، وهداية الضال وتوبة المذنب،وإصلاح ذات البين، وتوحيد الصف ، والتحفيز للجهاد في سبيل الله عز وجل ، ورد المستعمر عن بلاد المسلمين..

٧ – وفي مشاركة النبي ﷺ أصحابه في بناء المسجد ، وحمله الحجارة وهو يرتجز:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

دليل على عظيم تواضعه ﷺ، وهو من هو رفعة عند الله عز وجل وعند الناس. لم تكن مشاركة رمزية يضع فيها الحجر الأساس وسط هالة من الاحتفاء والهتاف والتصفيق ، بل كانت مشاركة فعلية، زادت من حماس الصحابة وتضحياتهم،وجعلت أحدهم يقول :

١- أخرجه أحمد ٤١١/١ والحاكم ٢٠/٣ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ،ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي : (وفيه عاصم به بهدلة وحديثه حسن ،وبقية رجال أحمد رجال الصحيح) مجمع الزوائد ٦٩/٦.

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل.

والشيء نفسه حدث عند تجديد بناء الكعبة قبل أن يبعث نبيا.وكذا في حفر الخندق في غزوة الأحزاب حتى اغبرت بطنه الشريفة ، وعصب عليها الحجارة من شدة الجوع! فصلى الله عليك يا رسول الله ، ما أعظمك.

٨ – وفيما قام به علي بن أبي طالب وأسماء بنت أبي بكر وعامر بن فهيرة نماذج مثلى لشباب الإسلام لخدمة الدعوة الإسلامية ، والتضحية في سبيلها.ونموذج مصعب بن عمير الذي كان من أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة ، ونشاطه العظيم في الدعوة إلى الله عز وجل ،ودخول الإسلام في كثير من بيوت الأنصار بسببه.هذا الشاب ، كما تحكي كتب السير كان أنعم فتى في قريش ،ودخل في الإسلام ، وتحمل فيه ما تحمل ، ثم عند وفاته لم يجدوا ثوبا كافيا يكفي لكفنه!أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي وائل قال : (عدنا خبابا فقال : هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد وترك نمرة فإذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجليه بدا رأسه فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الإذخر .ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها)[1].الله أكبر، أين نحن من هذه القمم الشوامخ في التضحية في سبيل الله عز

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٨٩٧ ومسلم كتاب الجنائز باب في كفن الميت رقم ٩٤٠.

وجل؟ ترى الواحد منا ينفق بعض وقته، أو دريهمات معدودة من ماله في سبيل الدعوة الإسلامية، وقد يستكثر ذلك على الله عز وجل، ولو قاس ذلك إلى ما بذله جيل الصحابة وتابعوهم بإحسان لهان عنده، ثم لو قاسه إلى آلاء الله عز وجل ونعمه عليه التي لا تعد ولا تحصى لكان شيئا لا يذكر.

٩ – كما كان للمرأة المسلمة دور بارز في هذا الحدث ، بدءا بأسماء بنت أبي بكر التي شقت نطاقها اثنين، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر، فسميت بذات النطاقين[١] ، والتي كانت تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما[٢] ، وهاجرت إلى المدينة وهي حبلى، فولدت عبد الله بن الزبير بقباء، وكان أول مولود ولد في الإسلام[٣] .ومرورا بأم معبد عاتكة بنت خالد التي مر بها الركب النبوي فارتووا من شاتها ،ووصفت الرسول ﷺ ذلك الوصف البليغ الفصيح الذي خلدته كتب الحديث والسيرة.وإلى أم سلمة التي كانت هي وزوجها أبو سلمة أول من شد الرحيل إلى المدينة المنورة، فخرج زوجها ومنعت هي من اللحاق به، وحيل بينها وبين ولدها سلمة[٤].ثم عائشة وأسماء بنتا أبي بكر اللتان روتا حديث الهجرة.

١٠ – وفي تخلف علي بن أبي طالب لرد الأمانات إلى أهلها في هذا

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٧.

٢- السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٥/٢.

٣- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٩.

٤- زاد المعاد ٤٩/٣.

الظرف الخطير، دليل على تميز الإسلام عن مذاهب البشر بأخلاقياته حتى في ظروف المحن ، وساعات الشدائد.وحاشا رسول الله ﷺ ، وهو الذي عرف بين قومه بالأمين، أن يتخلى عن الأمانات التي اؤتمن عليها ، حتى ولو كان مطاردا من قومه[١].

١١ – وفي حدث الهجرة منقبة كبرى لأبي بكر الصديق ، الذي أكرمه الله تعالى بصحبة نبيه الكريم في هذه الرحلة المباركة، واختصه بذلك من دون جميع الصحابة،وخلد وصفه بذلك في محكم التنزيل حيث قال : (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[٢] .وفيها أيضا منقبة كبرى لعلي بن أبي طالب الذي فدى النبي ﷺ بنفسه، حينما تطوع للمبيت في فراش رسول الله ﷺ عندما هم المشركون بقتله.وفي قوله ﷺ لعمار : (تقتلك الفئة الباغية)[٣] فضيلة ظاهرة لعلي ولعمار ،ورد على النواصب الزاعمين أن عليا لم يكن مصيبا في حروبه[٤] .وفيها أيضا منقبة كبرى لأبي أيوب وزوجه الذين أكرمهم الله تعالى باستضافة نبيه الكريم،وخير الخلق ، فنعم الضيف ونعم المضيف،وفي كراهة أبي أيوب أن يكون في علو البيت والرسول ﷺ في أسفله، من تعظيم رسول اللهﷺ ورعاية حقه ما لا يقادر قدره.

١- انظر دراسة في السيرة ، الدكتور عماد الدين خليل ص ١٣٥.

٢- التوبة ٤٠.

٣- البخاري كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المسجد رقم ٤٤٧.

٤- فتح الباري ٦٤٦/١.

١٢ – ودل هذا الحدث على عظيم مكانة الصحابة، وحسن بلائهم في سبيل الله تعالى ، فقد تعرضوا في مكة لفتنة الإيذاء والتعذيب ، والسخرية والاستهزاء،فلما أذن لهم الرسول ﷺ في الهجرة إلى المدينة، أصبحت فتنتهم في ترك الوطن والأهل والمال والدار.وكم هو صعب أن يغادر المرء عشه الذي فيه درج،وأرضه التي ألف ، إلى بلد غريب.ألم يقل الرسولﷺ وهو يغادر مكة صوب المدينة : (ما أطيبك من بلدة وأحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[1] ألم يعبر بلال عن هذا المعنى عندما أصابته حمى المدينة ، فأنشد يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل [2]

وإن في موقف صهيب الرومي[3] عندما أراد الهجرة بيان للحال التي كان عليها المهاجرون من ترك الوطن والأهل والمال، وإيثار ما عند الله تعالى على الدنيا وما فيها ، وتقديم حب رسول الله ﷺ على حب من سواه.

إن الواحد منا قد تضطره ظروف ما للهجرة عن بلده، فيلقي عصا الترحال بديار الغربة وقد تدوم هذه الغربة سنوات ،ثم تجده يحن حنينا إلى بلده، حتى ولو قسا أهله عليه!

١- صحيح ابن حبان ٢٣/٩.

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٢٦.

٣- المستدرك ٤٥٢/٣.

بلادي وإن قست علي عزيـــزة وأهلي وإن جاروا علي كرام

أو كما قال الآخر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيـــب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبـــــدا لأول منـزل

١٣ – وفي مؤاخاتــه ﷺ بــين المهــاجرين والأنــصار دليــل علــى العنايــة الــتي يوليهــا الإســلام لهــذا الجانــب في حيــاة المــسلمين ، جانــب الأخــوة والمــودة والرحمــة ، ونبــذ الــشقاق والفرقــة والتنازع،ونــصوص القــرآن الكــريم والــسنة النبويــة مفــصحة بهــذا المعنــى، مؤكــدة عليــه بــأكثر مــن أسـلوب، قـال تعـالى: (إنمـا المؤمنـون إخـوة فأصـلحوا بـين أخـويكم)[١] وقـال تعــالى : (يــسألونك عــن الأنفــال قــل الأنفــال فاتــقوا الله وأصــلحوا ذات بيــنكم)[٢] وقــال تعــالى : (ولا تنــازعوا فتفــشلوا وتــذهب ريحكــم)[٣] وقــال الــنبيﷺ : (مثـل المـؤمنين في تـوادهم وتـراحمهم وتعـاطفهم مثـل الجـسد إذا اشــتكى منــه عــضو تــداعى لــه ســائر الجــسد بالــسهر والحمــى)[٤] وقــال أيــضا: (ألا أخــبركم بأفــضل مــن درجــة الــصلاة والــصيام والــصدقة ؟ قــالوا: بلــى، قــال: إصــلاح ذات الــبين .وفــساد ذات الــبين هــي الحالقــة)[٥]... إلى غيرهــا مــن النــصوص الكــثيرة في هــذا البــاب.وانظــر –رحمــك الله –

١- الحجرات ١٠.

٢- الأنفال ١.

٣- الأنفال ٤٦.

٤- صحيح مسلم ١٩٩٩/٤ من حديث النعمان بن بشير.

٥- أخرجه أحمد ٤٤٤/٦ وصححه ابن حبان ٤٨٩/١١ من حديث أبي الدرداء.

إلى واقع المسلمين اليوم عندما ابتعدوا عن هذا المهيع، وتنكبوا هذا السبيل ، كيف صاروا طوائف وشيعا ، يخاصم بعضهم بعضا ، ويعادي بعضهم بعضا ،وقد يكون ذلك لأمر هين، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

١٤ – وفي الهجرة مواقف كثيرة دلت على عظيم حب الصحابة لرسول الله ﷺ ، منها بكاء أبي بكر من الفرح لما علم بصحبته لرسول الله ﷺ في الهجرة، وقيامه على خدمة رسول الله ﷺ أثناء الهجرة. ومنها انتظارهم في المدينة كل يوم مقدم رسول الله ﷺ ،ومنها أخذهم بخطام راحلته وقولهم: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة. ومنها صنيع أبي أيوب وزوجه مع رسول الله ﷺ ..وكم في السيرة النبوية من مواقف مشابهة تعبر عن مشاعر الصحابة تجاه نبيهم الكريم ﷺ، وقد عبر عن هذه المشاعر البراء بن عازب حينما قال : (.. ثم قدم النبي ﷺ ،فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ)[1].وقول أنس بن مالك : (..فما رأيت يوما قط أنور ولا أحسن من يوم دخل ﷺ وأبو بكر المدينة، وشهدت وفاته فما رأيت يوما قط أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي ﷺ فيه)[2].

١٥ – كما دلت الهجرة على فضل المدينة المنورة باعتبارها مهاجر رسول الله ﷺ ،وقد وردت في فضلها أحاديث كثيرة ،كما وردت في فضل أهلها الأنصار الذين آووا النبي ﷺ ونصروه آيات وأحاديث

١- البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة رقم ٣٩٢٥.

٢- مسند أحمد ١٢٢/٣.

كثيرة، في مقدمتها ما رواه الشيخان البخاري ومسلم.ولهذه المكانة المتميزة للمدينة المنورة أفردها العلماء بالتأليف،وفصلوا الكلام في جوانب كثيرة من تاريخها،وهذه المؤلفات مصدر مهم من مصادر السيرة النبوية.

١٦ – وفي حديث البراء بن عازب قال : (اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمل إلي رحلي ،فقال عازب: لا حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺحين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم..)[١] الحديث ، وفيه دليل على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الحرص على معرفة سيرة رسول الله ﷺ، وأيام الإسلام[٢].

١٧ – وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام لما نزل النبي ﷺ دار أبي أيوب [٣]، بيان لما جبل عليه اليهود لعنهم الله ، من عناد للحق ، وعداوة للنبي ﷺ .

١٨ – وفي موقف سراقة بن مالك ما يدعو إلى العجب ،فقد خرج للفوز بالجائزة المرصودة، و(أراد أن يكون له الظفر خاصة ، وقد

١- البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين وفضلهم رقم ٣٦٥٢.

٢- قال الحافظ : (قال الخطابي : تمسك بهذا الحديث من استجاز أخذ الأجرة على التحديث، وهو تمسك باطل لأن هؤلاء اتخذوا التحديث بضاعة، وأما الذي وقع بين عازب وأبي بكر فإنما هو على مقتضى العادة الجارية بين التجار بأن أتباعهم يحملون السلعة مع المشتري سواء أعطاهم أجرة أم لا .كذا قال ،ولا ريب أن في الاستدلال للجواز بذلك بعدا لتوقفه على أن عازبا لو استمر على الامتناع من إرسال ابنه لاستمر أبو بكر على الامتناع من التحديث.والله أعلم).فتح الباري ١٣/٧.

٣- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩١١.

سبق له من الظفر ما لم يكن في حسابه!)[١]، حيث أسلم يوم الفتح، وحظي بصحبة رسول الله ﷺ، وذلك والله خير له من الدنيا وما فيها.وما ذا تغني عنه الجائزة بل ولا الدنيا كلها إذا ظفر بها ، ومات على الشرك والعياذ بالله ؟ فانظر رحمك الله إلى تصرف الأقدار الإلهية ، وتأمل في موقف سراقة هذا واقرأ قوله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)[٢].

***

المطلب الثاني : الأحكام الفقهية:

١ – دل استئجار النبي ﷺ لعبد الله بن أريقط على جواز الاستعانة بالمشرك المأمون ،وبوب عليه البخاري بقوله : (باب استئجار المشركين عند الضرورة ،أو إذا لم يوجد أهل الإسلام ، وعامل النبي ﷺ يهود خيبر) ،قال ابن حجر : (هذه الترجمة مشعرة بأن المصنف يرى بامتناع استئجار المشرك حربيا كان أو ذميا إلا عند الاحتياج إلى ذلك كتعذر وجود مسلم يكفي في ذلك)[٣].

أما قوله ﷺ في الحديث الآخر : (ارجع فلن أستعين بمشرك)[٤]، فليس هو على إطلاقه كما فهم منه بعض العلماء ،فمنعوا

١- زاد المعاد ٥٥/٣.

٢- البقرة ٢١٤.

٣- فتح الباري ٥١٧/٤.

٤- صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٨/١٢.

الاستعانة بالمشرك مطلقا، ووجه الحديث الأول كما ذكر الشافعي وغيره، أن الكافر إذا كان حسن الرأي في المسلمين ،ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به، وإلا فيكره،وعلى هذا المعنى ترجم النووي لهذا الحديث فقال : (باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر إلا لحاجة ، أو كونه حسن الرأي في المسلمين)[1].وقد يكون قوله ﷺ : (ارجع فلن أستعين بمشرك)خاصا بذلك الوقت ،أي في غزوة بدر كما جاء في سياق الحديث ، فيكون منسوخا ،وحجة النسخ شهود صفوان بن أمية حنينا مع النبي ﷺ وهو مشرك[2]. وأجاب الإمام مالك عن شهود صفوان حنينا والطائف وهو كافر ،بأن ذلك لم يكن ذلك بأمر رسول الله ﷺ [3]،بل باختياره كما ذكر الطحاوي أيضا، ورده ابن حجر بقوله : (وهي تفرقة لا دليل عليها ولا أثر لها، وبيان ذلك أن المخالف لا يقول به مع الإكراه، وأما الأمر فالتقرير يقوم مقامه)[4].

٢ – لا بأس بإنشاد الشعر والرجز أثناء العمل دفعا للسآمة، وجلبا للأنس،وللقوة على مشقة العمل، دل على ذلك صنيع الرسول ﷺ الذي كان يقول ، وهو ينقل اللبن لبناء المسجد:

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

١- انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٩٨- ١٩٩.

٢- فتح الباري ٦/٢٠٨.وانظر هناك أقوالا أخرى في الجمع بين هذه الأحاديث.

٣- التمهيد ١٢/٣٥.

٤- فتح الباري ٦/٢٠٨.

ويقول: اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجره [١]

قال ابن حجر : (وفي الحديث جواز قول الشعر وأنواعه خصوصا الرجز في الحرب، والتعاون على سائر الأعمال الشاقة لما فيه من تحريك الهمم وتشجيع النفوس وتحركها على معالجة الأمور الصعبة)[٢].

٣ – كانت مؤاخاة المهاجرين والأنصار في بداية الأمر على أساس التوارث فيما بينهم، دون ذوي الأرحام ، وكان ذلك بينهم إلى حين وقعة بدر [٣] ،ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)[٤].أخرج البخاري من حديث ابن عباس في قوله تعالى (ولكل جعلنا موالي) قال: ورثة (والذين عاقدت أيمانكم) كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ،فلما نزلت (ولكل جعلنا موالي) نسخت ثم قال : (والذين عاقدت أيمانكم) من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له)[٥].قال السهيلي رحمه الله : (آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أعني في

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٦.

٢- فتح الباري ٢٩١/٧.

٣- زاد المعاد ٦٣/٣.

٤- الأحزاب ٤٢.

٥- كتاب التفسير باب (ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون) رقم ٤٥٨٠.

الميراث، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال : " إنما المؤمنون إخوة " يعني في التواد وشمول الدعوة)[1].وفيه دليل على ثبوت النسخ في الشريعة، وعلى أن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

٤ – دل حديث أنس بن مالك عند مقدم النبي ﷺ [2] على جواز نبش قبور المشركين ، واتخاذ مكانها مسجدا.وبوب عليه البخاري في صحيحه بقوله: (باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ،ويتخذ مكانها مساجد ؟) ، قال ابن حجر في شرح الترجمة : (أي دون غيرها من قبور الأنبياء وأتباعهم لما في ذلك من الإهانة لهم ،بخلاف المشركين فإنهم لا حرمة لهم. وأما قوله " لقول النبي ﷺ.. " إلخ ، فوجه التعليل أن الوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجد تعظيما ومغالاة كما صنع أهل الجاهلية وجرهم ذلك إلى عبادتهم ، ويتناول من اتخذ أمكنة قبورهم مساجد بأن تنبش وترى عظامهم ، فهذا يختص بالأنبياء ويلتحق بهم أتباعهم ،وأما الكفرة فإنه لا حرج في نبش قبورهم إذ لا حرج في إهانتهم ولا يلزم من اتخاذ المساجد في أمكنتها تعظيم ،فعرف بذلك أن لا تعارض بين فعله ﷺ في نبش قبور المشركين واتخاذه مسجده مكانها وبين لعنه ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء مساجد لما تبين من الفرق) [3] .ونقل في موضع آخر عن ابن بطال قوله : (لم أجد في نبش قبور المشركين لتتخذ مسجدا نصا عن أحد

١- الروض الأنف ٢/٢٥٢.

٢- البخاري كتاب الصلاة باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ،ويتخذ مكانها مساجد ؟ رقم ٤٢٨ و كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٣٢.

٣- فتح الباري ١/٦٢٤- ٦٢٥.

من العلماء .نعم اختلفوا هل تنبش بطلب المال؟ فأجازه الجمهور ومنعه الأوزاعي. وهذا الحديث حجة للجواز لأن المشرك لا حرمة له حيا ولا ميتا)[١].واستنبط الزرقاني منه جواز التصرف في المقبرة المملوكة بالهبة والبيع، ونبش القبور الدارسة إذا لم تكن محترمة [٢].

٥ – كما دل الحديث على جواز قطع الشجر المثمر إذا دعت الحاجة إلى ذلك[٣]،وعلى جواز الصلاة في مرابض الغنم ، وعلى جواز الإرداف على الدابة،إذ كان أبو بكر ردف النبي ﷺ ،قال الحافظ : (وقد أفرد ابن منده أسماء من أردفه النبي ﷺ خلفه فبلغوا ثلاثين نفسا)[٤].

٦ – وفي قول أبي بكر : (هذا الرجل يهديني السبيل)[٥] جوابا لمن كان يسأله : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ دليل على جواز التعريض.وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.ونقل ابن حجر عن ابن بطال أن (محل الجواز فيما يخلص من الظلم أو يحصل الحق وأما استعمالها في عكس ذلك من إبطال الحق أو تحصيل الباطل فلا يجوز)[٦].

٧ – وفي دعاء بلال عندما أصابته الحمى بالمدينة : (اللهم العن

١- فتح الباري ٣١٢/٧- ٣١٣.
٢- شرح المواهب اللدنية ١٧٧/٢.
٣- فتح الباري ٣١٣/٧.
٤- فتح الباري ٤١٢/١٠.
٥- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩١١.
٦- فتح الباري ٦١٠/١٠.

شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء)[١]، دليل على جواز الدعاء على الكفار بالأمراض والهلاك[٢].

٨ – وفي حمل عمار لبنتين : لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ[٣]، جواز ارتكاب المشقة في عمل البر ، وتوقير الرئيس والقيام عنه بما يتعاطاه من المصالح ، وفضل بنيان المساجد[٤].

٩ – ودل حديث أسماء بنت أبي بكر التي جاءت بمولودها عبد الله بن الزبير إلى النبي ﷺ ، فحنكه بتمرة ودعا له وبرك عليه[٥]، على مشروعية ذلك بالنسبة للمولود.

١٠ – كما دل تجسس عبد الله بن أبي بكر الأخبار على قريش وإخبار النبي ﷺ بذلك على مشروعية التجسس على الكفار، وتطالعنا في السيرة النبوية كثير من المواقف التي اتخذ النبي ﷺ عيونا له يترصدون له الأخبار، ويراقبون تحركات الأعداء..

١١ – ويؤخذ من حديث أم معبد كما قال ابن المنير (أنه لا يسوغ التصرف في ملك الغير ولا إصلاحه وتنميته إلا بإذنه، ولهذا استأذنها في إصلاح ساتها ، وفيه لطيفة عجيبة ، وهو أن اللبن المحتلب من

١- البخاري كتاب فضائل المدينة باب ١٢ رقم ١٨٨٩.
٢- شرح المواهب اللدنية ١٧٢/٢.
٣- البخاري كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المسجد رقم ٤٤٧.
٤ - فتح الباري ٦٤٥/١ وشرح المواهب اللدنية ١٧٩/٢.
٥- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٠٩.

الشاة لا بد أن يفرض مملوكا ، والملك هاهنا دائر بين صاحب الشاة وبين النبي ﷺ ،وأشبه شيء بذلك المساقاة ، فإنها تكرمة الأصل وإصلاحه بجزء من الثمرة، وكذلك فعل النبي ﷺ أكرم الشاة وأصلحها بجزء من اللبن ،و يحتمل أن يقال : إن اللبن مملوك للنبي ﷺ وسقاها تفضلا منه لأنه ببركته كان، وعن دعائه وجد ، والفقه الأول أدق وألطف[1]).قلت : وما ذكره ابن المنير من (أنه لا يسوغ التصرف في ملك الغير ولا إصلاحه وتنميته إلا بإذنه) ليس على إطلاقه ،ففي حديث الثلاثة الذين آواهم الغار[2] ما يرده، وذلك قوله : (اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرا بفرق من ذرة فأعطيته وأبى ذلك،فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقرا وراعيها) فإن فيه – كما قال الحافظ – تصرف الرجل في مال الأجير بغير إذنه، ولكنه لما ثمره له ونماه وأعطاه أخذه ورضي. وطريق الاستدلال به ينبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا والجمهور على خلافه والخلاف فيه شهير. لكن يتقرر بأن النبي ﷺ ساقه مساق المدح والثناء على فاعله، وأقره على ذلك، ولو كان لا يجوز لبينه. فبهذا الطريق يصح الاستدلال به لا بمجرد كونه شرع من قبلنا[3].

***

١- شرح المواهب اللدنية ٢/١٤١.

٢- البخاري كتاب البيوع باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي رقم ٢٢١٥ من حديث ابن عمر.

٣- فتح الباري ٤/٤٧٨.

المبحث الرابع : دلائل النبوة في حدث الهجرة

اشتمل هذا الحدث العظيم على جملة من الدلائل النبوية ، وطائفة من المعجزات الربانية التي أكرم الله بها نبيه محمدا ﷺ ، وأقامها شاهدا على نبوته،و ضربا من ضروب العناية الإلهية بهذا النبي الكريم،ومظهرا من مظاهر التكريم لهذا الرسول العظيم، ومن تلكم الدلائل:

١ – أبلغه الوحي بمؤامرة الكفار التي دبروها في دار الندوة للقضاء عليه ،وذلك غيب لم يطلع عليه محمد ﷺ ،قال تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)[1]. وأنى لمحمد ﷺ أن يعلم علم ذلك، لولا إعلام الله تعالى إياه؟

٢ – وفي قول الرسول ﷺ لصاحبه أبي بكر وهما في الغار: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما[2] ، دليل على قوة اليقين بالله تعالى الذي كان يملأ نفس الرسول ﷺ،ودليل على صدق نبوته، إذ يستحيل على مدع للنبوة أن يثبت مثل هذا الثبات، وتنطوي نفسه على مثل هذا الإيمان بالله عز وجل، وهذا اليقين بنصره وتأييده في مثل هذه اللحظات الحرجة الشديدة ، وكيف يكون مدعي النبوة كذلك وهو يكذب على الله عز وجل؟ هذا من أبلغ المحال.ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى : (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه

١- الأنفال ٣٠.

٢- البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين وفضلهم رقم ٣٦٥٣.

لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)[١] .

ونفس المعنى كذلك عندما لحقهما سراقة فقال أبو بكر : (هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله فقال ﷺ : لا تحزن إن الله معنا)[٢]. فجعل سراقة لا يلقى أحدا إلا قال : كَفَيتكم ما هنا[٣]، وهكذا كان أول النهار جاهدا على النبي ﷺ وآخره مسلحة له[٤].فسبحان مقلب القلوب ،كيف انقلب شأن هذا الرجل،فبعد أن كان عدوا مطاردا ، أصبح حارسا ومساندا ،أليس ذلك دليلا على نبوة محمدﷺ؟

٣ – وفي قصة سراقة بن مالك ، وعثور فرسه ،ومحاولته اليائسة اللحاق بالنبي ﷺ ،دليل آخر من دلائل نبوته ﷺ،فأيقن أن الرسول ﷺ ممنوع منه، ونادى بالأمان.

٤ – وفي مرور النبي ﷺ وصحبه على أم معبد الخزاعية ،ومسحه على ضرع شاة لها عجفاء لا تكاد تبض بقطرة ، فدر اللبن غزيرا ،فارتوى هو ومن معه،وأبقى بقية لأهل البيت،دليل آخر من أدلة نبوتهﷺ.

١- التوبة ٤٠.

٢- البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين وفضلهم رقم ٣٦٥٢

٣- البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام رقم ٣٦١٥.

٤- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩١١.

٥ – وفي قوله ﷺ : (خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة)[١] ، دليل آخر من أدلة نبوتهﷺ، لأنه ليس له من أمر الناقة شيء حتى ينزل في المكان الذي يريد ، بل الأمر بيد الله عز وجل الذي بأمره تسير الناقة ، وحيث بركت كان مقام النبي ﷺ. قال ابن القيم رحمه الله : (فنزل عنها – أي الناقة – وذلك في بني النجار أخواله ﷺ ، وكان من توفيق الله تعالى لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله ، يكرمهم بذلك)[٢].ونقل الزرقاني عن ابن المنير قوله: (الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه عليه السلام لمن خصه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس ، وتذهب معها المنافسة ، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئا)[٣].

٦ – وفي قول النبي ﷺ لعمار بن ياسر حين بناء مسجد المدينة : (ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)[٤] ،دليل آخر من أدلة نبوة محمد ﷺ إذ قتل عمار في الفتنة التي نشبت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.قال ابن كثير رحمه الله: (وهذا الحديث من دلائل النبوة حيث أخبر صلوات الله وسلامه عليه عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين وعمار مع علي وأهل العراق .. وقد كان علي أحق بالأمر من معاوية. ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة

١- سيرة ابن هشام ٤٩٥/٢ وطبقات ابن سعد ٢٣٦/١.

٢- زاد المعاد ٥٩/٣.

٣- شرح المواهب اللدنية ١٦٠/٢.

٤- البخاري كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المسجد رقم ٤٤٧.

تكفيرهم كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم ، لأنهم – وإن كانوا بغاة في نفس الأمر – فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال، وليس كل مجتهد مصيبا بل المصيب له أجران والمخطئ له أجر)[1].

٧ – وفي الأخوة التي جمعت بين أعداء الأمس الأوس والخزرج، وبين المهاجرين والأنصار دليل آخر من أدلة نبوة محمدﷺ، إذ لا قبل لمحمدﷺ بذلك لولا أن الله تعالى يسر له ذلك، وأجراه على يديه، وأعزه بذلك كما قال أولئك النفر الذين بايعوهﷺ : (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ،فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك)[2]. وهذا المعنى هو المشار إليه في قوله تعالى : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)[3] .

هؤلاء الذين بالأمس أعداء أصبحوا اليوم إخوة، يحب بعضهم بعضا وينصر، بعضهم بعضا ، بل ويؤثر بعضهم بعضا ، فاستحقوا بذلك مدحة الله عز وجل من فوق سبع سماوات : (والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لايجدون في صدورهم

١- البداية والنهاية ٣/٢١٨.
٢- السيرة النبوية ٢/٤٢٩.
٣- الأنفال ٦٢- ٦٣.

حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[١].هؤلاء الذين كانوا أعداء بالأمس، أصبحوا بفضل الإسلام على هذا المستوى من الحب والبذل والتضحية ،هاهنا إذن عظمة الإسلام، وهاهنا إذن عظمة محمد ﷺ :(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[٢].

٨ – وفي حديث هجرة صهيب الرومي دليل آخر من أدلة نبوة محمدﷺ، قال صهيب : (فلما رآني – أي النبي ﷺ – قال : يا أبا يحيى ربح البيع ثلاثا. فقلت : يا رسول الله ما سبقني إليك أحد ،وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام)[٣].

***

١- الحشر ٩.

٢- آل عمران١٠٣.

٣- البيهقي في الدلائل ٥٢٢/٢- ٥٢٣ والمستدرك ٤٥٢/٣ وصححه ووافقه الذهبي .

المبحث الخامس : آثار الهجرة النبوية :

كانت للهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة آثار كبيرة على مسيرة الإسلام ،حيث انتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى ، من مرحلة كان فيها المسلمون قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس ، إلى أمة كبيرة لها دولة يحكمها دستور،وتجمع بين أفرادها آصرة العقيدة، لحمتها الأخوة وسداها المحبة.ومن مرحلة كان التركيز فيها على تصحيح العقيدة وإرساء دعائم التوحيد ، وحرب الشرك وأهله، إلى مرحلة التشريع حيث فرضت الفرائض والحدود.ومن مرحلة كانت الدعوة فيها لا تعدو جزيرة العرب ، إلى مرحلة العالمية حيث كاتب النبي ﷺ الملوك والأمراء،وانفتحت الدعوة على العالم الخارجي ، وانطلقت الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها تنشر دين الله عز وجل.وقد أشار ابن إسحاق إلى بعض من هذه المعاني حين قال : (فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار ،استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة ،وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم).وفيما يأتي بيان لأبرز آثار الهجرة النبوية.

***

المطلب الأول: بداية التأريخ الإسلامي:

إذ اتخذ المسلمون هذا الحدث العظيم منطلقا للتأريخ الإسلامي ، وعنوانا لتميز الأمة الإسلامية في تأريخ أيامها وأخبارها ، كما هي متميزة في شعائرها وسلوكياتها.

وقد كانت أمام المسلمين خيارات أربعة لبدء التاريخ الإسلامي هي : مولد النبي ﷺ ومبعثه وهجرته ووفاته.وهي التي تداولتها آراء الصحابة على عهد عمر بن الخطاب كما أخرجه ابن أبي خيثمة من طريق ابن سيرين قال : (قدم رجل من اليمن فقال :رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا ،فقال عمر: هذا حسن فأرخوا ، فلما جمع على ذلك قال قوم: أرخوا للمولد ،وقال قائل: للمبعث ،وقال قائل: من حين خرج مهاجرا ،وقال قائل: من حين توفي .فقال عمر :أرخوا من خروجه من مكة إلى المدينة. ثم قال: بأي شهر نبدأ ؟فقال قوم :من رجب وقال قائل :من رمضان. فقال عثمان: أرخوا المحرم فإنه شهر حرام ،وهو أول السنة ومنصرف الناس من الحج .قال وكان ذلك سنة سبع عشرة ،وقيل سنة ست عشرة في ربيع الأول)[1].

وهذا الذي أفادته هذه الرواية هو ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد قال : (ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته،ما عدوا إلا من مقدمه المدينة)[2]. واستنبط السهيلي من قوله تعالى : (من أول يوم) صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين

١- فتح الباري ٣١٥/٧.

٢- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب التاريخ: من أين أرخوا التاريخ؟ رقم ٣٩٣٤.

شاورهم في التاريخ فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة الوقت الذي عز فيه الإسلام والذي أمر فيه النبي ﷺ، وأسس المساجد وعبد الله آمنا كما يحب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه "من أول يوم" أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن ،فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية ، فهو الظن بأفهامهم، فهم أعلم الناس بكتاب الله تعالى وتأويله وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح ، وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد ، فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا ، وأشار إلى صحته قبل أن يفعل)[1].

وأفاد ابن حجر أنهم إنما أخروا بدء التاريخ من ربيع الأول شهر الهجرة إلى المحرم، لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ،إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ . قال : وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم[2].

***

١- الروض الأنف ٢/٢٤٦.

٢- فتح الباري ٧/٣١٥.

المطلب الثاني : أثرها على المستوى التشريعي

كانت الهجرة فاصلا بين مرحلتين :المرحلة المكية أو مرحلة العقيدة، والمرحلة المدنية أو مرحلة التشريع،حيث فرضت كثير من التشريعات كالزكاة والصوم والحج والجهاد ..وحولت القبلة، وشرع الأذان، وزيد في الصلاة الرباعية ركعتين..وفيما يأتي بيان لبعض هذه التشريعات:

أ) تحويل القبلة: أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ،وأنه صلى – أو صلاها – صلاة العصر، وصلى معه قوم ،فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون ،قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله سبحانه وتعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم)) [١].وكان ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام فكان يدعو وينظر إلى السماء فأنزل الله تبارك وتعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)[٢]

١- البخاري كتاب التفسير باب (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ..) رقم ٤٤٨٦ .

٢- جامع البيان ٥٠٢/١ ، والآية من سورة البقرة ١٤٣.

.وكان ذلك في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم النبي ﷺ المدينة[١]، قال ابن كثير : (ذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله ﷺ وقد صلى ركعتين من الظهر، وذلك في مسجد بني سلمة فسمى مسجد القبلتين)[٢]، ولم يبلغ الخبر أهل قباء إلا عند صلاة الصبح ،وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة [٣]. وتكلم في ذلك الكفار والمنافقون واليهود، قال ابن القيم : (وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ،ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ،ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .فأما المسلمون فقالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا "آمنا به كل من عند ربنا"[٤] وهم الذين هدى الله ولم تكن كبيرة عليهم. وأما المشركون فقالوا :كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق . وأما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء . وأما المنافقون فقالوا : ما يدري محمد أين يتوجه ،إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق ،فقد كان على باطل ،وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿ وإن

١- سيرة ابن هشام ٦٠٦/٢.

٢- تفسير القرآن العظيم ١٦٧/١.

٣- البخاري كتاب الأذان بباب بدء الأذان رقم ٦٠٤ ، وصحيح مسلم ٣٧٥/١ .قال ابن كثير : (وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء ، والله أعلم)تفسير القرآن العظيم ١٦٧/١.

٤- آل عمران ٧.

كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾[١] وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ،ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه)[٢].

ب) تشريع الأذان[٣]:

لما قدم النبي ﷺ المدينة ، كان المسلمون يجتمعون للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ،فهَمَّ رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن عبد ربه رؤيا منام تدله على الأذان[٤] ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره ،فقال رسول الله ﷺ :إنها لرؤيا حق ،إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه ،فليؤذن بها ،فإنه أندى صوتا منك. فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ،وهو في بيته ،فخرج إلى رسول الله ﷺ ،

١- البقرة ١٤٢.

٢- زاد المعاد ٦٦/٣- ٦٧.

٣- وردت أحاديث تدل على أن الأذان شرع بمكة ، ولا يصح منها شيء (انظر الفتح ٩٤/٢).

٤- قال ابن حجر : (وقد استشكل إثبات حكم الأذان برؤيا عبد الله بن زيد لأن رؤيا غير الأنبياء لا ينبني عليها حكم شرعي، وأجيب باحتمال مقارنة الوحي لذلك أو لأنه ﷺ أمر بمقتضاها لينظر أيقر على ذلك أم لا ، ولا سيما لما رأى نظمها يبعد دخول الوسواس فيه ،وهذا ينبنى على القول بجواز اجتهاده ﷺ في الأحكام وهو المنصور في الأصول ،ويؤيد الأول ما رواه عبد الرزاق وأبو داود في المراسيل من طريق عبيد بن عمير الليثي أحد كبار التابعين " أن عمر لما رأى الأذان جاء ليخبر به النبي ﷺ فوجد الوحي قد ورد بذلك فما راعه إلا أذان بلال، فقال له النبي ﷺ : سبقك بذلك الوحي) الفتح ٩٨/٢.

وهو يجر رداءه ، وهو يقول :يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ : فلله الحمد على ذلك[١]. واختلف في السنة التي فرض فيها ،ورجح الحافظ أن ذلك كان في السنة الأولى[٢] .وكان عمر بن الخطاب قد اقترح من قبل المناداة للصلاة ، وذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر أنه قال : (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها ، فتكلموا يوما في ذلك ،فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقا مثل قرن اليهود ،فقال عمر :أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ :يا بلال، قم فناد بالصلاة)[٣].فهذا ظاهره أنه إعلام ليس على صفة الأذان الشرعي ،بل إخبار بحضور وقتها كما ذكر القاضي عياض ، ومال إليه النووي ، واستشهد له بحديث عبد الله بن زيد السابق الذكر، ثم قال : (فهذا ظاهره أنه كان في مجلس آخر فيكون الواقع الإعلام أولا ، ثم رأى عبد الله بن زيد الأذان فشرعه النبي ﷺ بعد ذلك أما بوحي وإما باجتهاده ﷺ على مذهب الجمهور في جواز الاجتهاد له ﷺ ،وليس هو عملا بمجرد المنام ،هذا ما لايشك فيه بلا خلاف، والله أعلم)[٤].ونحو

١- سيرة ابن هشام ٢/٥٠٨- ٥٠٩ ، من حديث ابن إسحاق ، وسياقه أتم ، وأخرجه الترمذي في أبواب الصلاة باب ما جاء في بدء الأذان رقم ١٨٩ ، وقال : حديث حسن صحيح.

٢- فتح الباري ٢/٩٣.

٣- ١/٢٨٥.

٤- شرح النووي على مسلم ٤/٧٦.

هذا ذكر الحافظ ابن حجر ، حيث ساق كلاما للقرطبي في الجمع بين الحديثين ،وتعقبه ،ثم قال : (والظاهر أن إشارة عمر بإرسال رجل ينادي للصلاة كانت عقب المشاورة فيما يفعلونه وأن رؤيا عبد الله بن زيد كانت بعد ذلك ،والله أعلم)[١].

ج) زيادة ركعتين في الصلاة الرباعية : بعد أن كانت ثنائية حين فرضها في مكة ليلة الإسراء،دل على ذلك حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:(فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر)[٢]، وبينت رواية أخرى أن ذلك وقع بالمدينة بعد هجرته إليها ﷺ، فعنها أيضا قالت: (فرضت الصلاة ركعتين ،ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعا وتركت صلاة السفر على الأولى)[٣].وذكر الحافظ ابن حجر في شرح الحديث السابق (أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب ، ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : "فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين ركعتين ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة واطمأن زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان ، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة ، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار". ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف

١- فتح الباري ٢/٩٧.

٢- البخاري كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء رقم ٣٥٠.

٣- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب التاريخ: من أين أرخوا التاريخ؟ رقم ٣٩٣٥.

منهـا في الـسفر عنـد نـزول الآيـة الـسابقة وهـي قولـه تعـالى : "فلـيس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة")[١].

***

المطلب الثالث: أثرها على المستوى السياسي

كانـت الهجـرة فاصـلا بـين مرحلـة كـان فيهـا المـسلمون قلـة مستـضعفة يخـافون أن يـتخطفهم النـاس ، ومرحلـة أصـبح فيهـا المـسلمون أمـة كـبيرة لهـا أرض تـستوطنها ، ودولـة يحكمهـا دسـتور. بمعنـى آخـر أصـبح المـسلمون قـوة يحـسب لهـا حـساب، خاصة بعـد الانتـصارات الـتي حققهـا المـسلمون في عـدد مـن المواجهـات مـع خـصومهم.وكانـت الأسـس الـتي أقـام عليهـا الـنبي ﷺ صـرح هـذه الدولـة الناشـئة ثلاثـة: بنـاء المـسجد ، والمؤاخـاة بـين المهـاجرين والأنـصار، وكتابـة الـصحيفة (الدسـتور).المـسجد بمـا يمثلـه مـن أبعـاد دينيـة وتربويـة وتعليميـة واجتماعيـة ، والمؤاخـاة بمـا تمثلـه مـن بعـد اجتمـاعي واقتـصادي أيضا ،والـصحيفة بمـا تمثلـه مـن بعـد سياسـي.وكـان إرسـاء الدولـة الإسـلامية بالمدينـة المنـورة علـى هـذه الأسـس بأبعادهـا المختلفـة والمتكاملـة ، نقلـة نوعيـة كـبرى لم يـشهد لهـا العـرب مثـيلا.يقـول الـدكتور أكـرم ضـياء العمـري: (ولم يكـن العربـي ليخـضع لدولـة ، وإنمـا كانـت الوحـدة الـسياسية والاجتماعيـة هـي القبيلـة ، وكانـت

١- فتح الباري ٥٥٤/١.

الدويلات التي نشأت في أنحاء من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بوقت طويل قد اندثرت وطغت البداوة والقبلية بما فيها من عصبية وتنازع وصراع وتفكك في سائر شبه الجزيرة ،فلما جاء الإسلام أرسى مفهوم الدولة وربط سائر القبائل والأفراد بها ، فقامت دولة المدينة المنورة على أساس فكري بحت، وتوسعت لتوحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام،فكانت هذه نقلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية السياسي)[1] .

***

المطلب الرابع: أثرها على المستويين الاجتماعي والاقتصادي

أدت الهجرة إلى تدفق أعداد كبيرة من وفود المهاجرين إلى المدينة المنورة،مما نتج عنه مشاكل اجتماعية واقتصادية بحاجة إلى حل. فقد خلف المهاجرون وراءهم بمكة أهليهم وأموالهم ، وقدموا المدينة فكانوا ، والحالة هذه، بحاجة إلى عمل يقتاتون منه، ومسكن يؤويهم، ورغم ما بذله الأنصار في هذا السبيل من أنواع البذل والمواساة والإيثار لإخوانهم المهاجرين ، فقد ظلت الحاجة قائمة إلى نظام يضمن العيش الكريم للمهاجرين، خاصة أن أنفتهم ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع يسد حاجياتهم ،ولا يشعرهم بأنهم عالة على مضيفيهم الأنصار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة[2].

١- السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري ٢٣٤/١.

٢- المرجع نفسه ٢٤٣/١.

ثم إن مفارقة المهاجرين لأهليهم ولبلدهم مكة ، إلى بيئة المدينة التي لم يألفوها ، جعلهم يستوحشونها في بدء الأمر، ويحنون إلى مكة ومن خلفوا بها من أهل وأصحاب ،شأن كل مغترب عن بلده ،فضلا عما اعترض بعضهم من مشاكل صحية أثناء مقامهم بالمدينة ، من ذلك ما ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، قالت : فدخلت عليهما ، فقلت : ياأبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت : فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ،وبارك لنا في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة)[1]. وكان بلال عندما أصابته الحمى بالمدينة يدعو: (اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية ابن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء)[2].

وما من شك في أن وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم، وأحاديثه

١- البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم ٣٩٢٦.

٢- البخاري كتاب فضائل المدينة باب ١٢ رقم ١٨٨٩.

المرغبة في سكنى المدينة وفضل الهجرة إليها ، والصبر على لأوائها ، والمعاملة الحسنة التي لقيها المهاجرون في كنف إخوانهم الأنصار، قد خفف ما لقيه المهاجرون أثناء مقامهم بالمدينة المنورة ،وجعلهم يتكيفون مع الوضع الجديد ،بل إن بعضهم، وهو عبد الرحمان بن عوف ،قد شق طريقه في ميدان التجارة ، وتزوج من الأنصار[١] ،وأثرى حتى صار من كبار أغنياء المسلمين.

كما كان من آثار هذه الهجرة تنوع سكان المدينة ،إذ أصبحوا يضمون، إضافة إلى السكان الأصليين (الأوس والخزرج واليهود)، وفود المهاجرين من قريش وقبائل العرب الأخرى .إضافة إلى أن تقسيم السكان لم يعد قبليا كما كان (الأوس والخزرج وقبائل اليهود) بل صار عقديا ، مبناه على العقيدة التي ميزت المؤمنين عن غيرهم ،وأنهم أمة واحدة من دون الناس كما ورد في صحيفة المدينة ، وهكذا صار سكان المدينة ينقسمون إلى : مؤمنين ومنافقين ويهود[٢] .

***

١- البخاري كتاب النكاح باب الوليمة ولو بشاة رقم ٥١٦٧.

٢- انظر السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري ٢٣٨/١- ٢٣٩.

خاتمـــــة :

كانـــت الهجـــرة النبويـــة بحـــق حـــدثا عظيمـــا في تـــاريخ الإسلام، وفيـــصلا كـــبيرا بـــين مـــرحلتين رئيـــسيتين في تـــاريخ الـــدعوة الإسلامية: المرحلة المكية والمرحلة المدنية.

ولقـد كانـت بيعتـا العقبـة الأولى والثانيـة المقدمـة الـتي مهـدت لحـادث الهجـرة، إذ بفـضل هـاتين البيعـتين صـار للإسـلام وجـود بالمدينـة المنـورة، وأصـبح لـه شـيعة وأنـصار، وغـدت المدينـة مؤهلـة أكثـر مـن غيرهـا لاســتقبال وفــود المهــاجرين بمكــة المكرمــة، واحتــضان الــدعوة الإسلامية.

وقـد عـانى المهـاجرون الأمـرين في هجـرتهم إلى المدينـة المنـورة، وهـان علـيهم الأهـل والأرض والمـال في سـبيل الله عـز وجـل.وكانـت خطـة الهجـرة الـتي اختطهـا الـنبي ﷺ مـن الدقـة والإحكـام والتكـتم بحيـث لم تـدع فرصة للعفوية والارتجال، أو تسريب المعلومات إلى العدو.

وبوصـول الـنبي ﷺ إلى المدينـة المنـورة بـدأت صـفحة أخـرى في سـجل الـدعوة الإسـلامية، وكانـت الأسـس الـتي أقـام عليهـا الـنبي ﷺ مجتمـع المدينـة ثلاثـة: المـسجد بمـا يمثلـه مـن أبعـاد دينيـة وتربويـة وتعليميـة واجتماعيـة، والمؤاخـاة بـين المهـاجرين والأنـصار بمـا تمثلـه مـن بعـد اجتمـاعي واقتـصادي أيضا،والـصحيفة بمـا تمثلـه مـن بعـد سياسـي.وكـان إرسـاء الدولـة الإسـلامية بالمدينـة المنـورة علـى هـذه الأسـس بأبعادهـا المختلفة والمتكاملة ، نقلة نوعية كبرى لم يشهد لها العرب مثيلا.

إن حدث الهجرة النبوية غني بالدروس والعبر، والدلالات والأحكام.ولعل من أبرز الدروس التي نستفيدها من هذا الحدث العظيم، حسن التخطيط، ومشروعية اتخاذ الأسباب ، ومشروعية الحذر والكتمان لبلوغ الهدف، والحرص على استكمال الفضل والثواب وبلوغ درجة الإحسان،وأهمية المسجد والأخوة بين المسلمين في دين الإسلام.كما نستفيد من هذا الحدث البلاء الحسن الذي أبلاه الصحابة رضي الله عنهم في سبيل الله عز وجل،وشدة حبهم للنبي ﷺ والدور الكبير الذي اضطلع به شباب الصحابة والمرأة المسلمة لنصرة الدين.

كما تضمن هذا الحدث جملة من الدلائل الشاهدة على نبوة محمد ﷺ في مواطن كثيرة،كإبلاغه ﷺ بخبر المؤامرة التي دبرها الكفار في دار الندوة،وما كان عليه من اليقين والثبات وهو في الغار،وقصة سراقة بن مالك، وشاة أم معبد ، وقوله ﷺ لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية .. وغيرها.

أيضا تضمن هذا الحدث جملة من الأحكام الفقهية كجواز الاستعانة بالمشرك المأمون عند الضرورة، وجواز إنشاد الشعر أثناء العمل دفعا للسآمة،وجواز نبش قبور المشركين واتخاذ مكانها مسجدا ، وجواز التعريض،وجواز الدعاء على الكفار بالأمراض والهلاك، وجواز ارتكاب المشقة في أعمال البر.

لقد كان للهجرة النبوية آثار عظيمة على مسيرة الإسلام إذ انتقل من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين في الأرض وإقامة الدولة ،

وإعلان الجهاد في سبيل الله، ومكاتبة الملوك والأمراء ،وتحقيق عالمية الدعوة الإسلامية.

وبرزت هذه الآثار على مستويات عدة: على المستوى التشريعي حيث فرضت كثير من التشريعات والحدود، وعلى المستوى السياسي حيث توحد العرب لأول مرة تحت راية الإسلام ،وأصبحت لهم دولة يحكمها دستور ينظم علاقات المسلمين فيما بينهم ،وعلاقاتهم مع اليهود .وعلى المستوى الاجتماعي حيث أدت الهجرة إلى تنوع سكان المدينة،ولم يعد تقسيم السكان قبليا كما كان (الأوس والخزرج وقبائل اليهود) ،بل صار مبناه على العقيدة، التي ميزت المؤمنين ، وجعلتهم أمة من دون الناس ..

ولأهمية هذا الحدث العظيم اتخذه المسلمون منطلقا للتاريخ الإسلامي في زمن الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وبالله تعالى التوفيق ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١- البداية والنهاية لابن كثير ، دار ابن كثير بدون تاريخ.

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي تصحيح خليل الميس، دار القلم بيروت ،ط الثانية ،دون تاريخ.

٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر ابن جرير الطبري ط دار الفكر بيروت ١٤٠٥ .

٤- دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ،مؤسسة الرسالة ودار النفائس بيروت ، ط الحادية عشر ١٤٠٩ – ١٩٨٩

٥- دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي تحقيق الدكتورعبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٩٨٥.

٦- الرحيق المختوم لصفي الرحمان المباركفوري ،دار الكتب العلمية بيروت ،ط الأولى ١٤٠٨ – ١٩٨٨.

٧- الروض الأنف لعبد الرحمن السهيلي تعليق طه عبد الرؤوف سعد ،دار الفكر بيروت ١٤٠٩ – ١٩٨٩ .

٨- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت ، ط الخامسة والعشرون ١٤١٢ – ١٩٩١.

٩- سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي مراجعة صدقي محمد جميل العطار دار الفكر ١٤١٤ – ١٩٩٤.

١٠- السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي المكتبة العلمية بيروت بدون تاريخ.

١١- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية –دراسة تحليلية – للدكتور مهدي رزق الله أحمد مركز الملك فيصل الرياض ، ط الأولى ١٤١٢ – ١٩٩٢.

١٢- السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري مركز بحوث السنة والسيرة قطر ١٩٩١.

١٣- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية لشهاب الدين القسطلاني تصحيح محمد عبد العزيز الخالدي دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٤١٧ – ١٩٩٦ .

١٤- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لأبي حاتم محمد بن حبان البستي تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت ،ط الثانية ١٤١٤ – ١٩٩٣.

١٥- صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر بيروت ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

١٦- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد دار صادر بيروت دون تاريخ.

١٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي دار الريان للتراث القاهرة ،ط الثانية ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

١٨- فقه السيرة لمحمد الغزالي بتخريج الشيخ محمد ناصر الدين

الألباني ، دار الكتب الحديثة، مصر ،ط الثامنة ١٤٠٨ – ١٩٨٨، .

١٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨ – ١٩٨٨.

٢٠- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت ،ط الأولى ١٤١١ – ١٩٩٠.

٢١- المسند للإمام أحمد بن حنبل المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت دون تاريخ.